ادب عربی، سال ۱۲، شمارۀ ۳، پاییز ۱۳۹۹
10.22059/jalit.2020.78579
Print ISSN: 2382-9850//Online ISSN: 2676-7627
http://jalit.ut.ac.ir

Postcolonial Criticism: A Cultural Approach to the Book *Culture and Imperialism* by Edward Said

Yadkar Latif Shahrazuri*

Professor, Department of Arabic Language and Literature, Salahaddin University, Erbil, Iraq
Received: April 13, 2020; Accepted: August 28, 2020

Abstract

There is a clear overlap between postmodern theories such as postfeminism, poststructuralism, and postindustrialism. An exception to this overlap is postcolonialism where the time frames of these theories and movements intersect at a contradictory point, even though the texts of each theory contain literary techniques from the other theories, as is the case in the relationship between postcolonialism and postmodernism. For instance, postmodernism attempts to dismantle the structures and restrictions imposed by the theories of literary genre, power, and value, even if they are prevalent traditions. As for the postcolonial approach, it is, to a large extent, politically oriented and seeks to dismantle the structures that consecrate hegemony, control, and power, and to establish relations between unequal forces through bilateral encounters such as I/the other, we/they, the first world/the third world, and white/black or yellow. Edward Said has been considered the founder of postcolonialism since he wrote his famous book *Orientalism*. We find traces of this critical field in his biographical book *Out of Place: A Memoir*. His works, especially his books *Orientalism* and *Culture and Imperialism*, opened new horizons to various fields of knowledge. The books of this Palestinian-born writer and intellectual have revolutionized Middle Eastern studies and contributed to the creation of new areas of knowledge, such as postcolonial theory. In *Culture and Imperialism*, he contends that global imperialism has used its dominance in literature, especially the novel which Western imperialism has effectively employed to gain domination over colonized people. He investigates the compatibility of goals between the novel and colonialism and asserts that the novel in particular and narratives in general play important roles in the issue of identity and belonging, as the novel was employed by imperialist powers in the nineteenth and twentieth century as a vital medium in order to extend their imperial control, subjugate the colonized people, and rob them of their identities.

Keywords: Literary criticism, Postcolonial criticism, Edward Said, Culture and Imperialism, Book review.

---

*. Corresponding author: yadgar.jamsheer@su.edu.krd

النقد ما بعد الاستعماري: مقاربة ثقافية في كتاب *الثقافة والامبريالية* لإدوارد سعيد

يادكار لطيف الشهرزوري*

أستاذ في اللغة العربية و آدابها بجامعة صلاح الدين، أربيل، العراق

صص ١-٢٤

تاريخ الاستلام: ١٣٩٩/٠١/٢٥ هـ.ش، تاريخ القبول: ١٣٩٩/٠٦/٠٧ هـ.ش

الملخص

تسعى نظريات ما بعد الاستعمار إلى تحقيق العدالة المادية والثقافية لجميع شعوب العالم على وجه المعمورة، على الرغم من صعوبة تحقيق هذا المسعى، لأنّ عالمنا المعاصر عالم مليء بالصراعات والإبادات وهضم الحقوق. وترجع أسباب هذا التوتر الثقافي والفكري واختلال التوازن الاقتصادي والعسكري إلى تقسيم العالم إلى قطبين رئيسين؛ هما الغرب والشرق أو الغرب وغير الغرب، وقد ظهر هذا التقاطب الذي ميّز الغرب عن باقي أقطاب الكرة الأرضية على نحو مطلق في القرن التاسع عشر عندما امتدت هيمنة الاستعمار الغربي عسكرياً وسياسياً وثقافياً وفكرياً، لتستولي على أصقاع شاسعة وكبيرة من مشارق الأرض ومغاربها. يرى إدوارد سعيد أنّ الامبريالية العالمية قد استعانت في بسط هيمنتها بالأدب، ولا سيما الفن الروائي الذي وظفته الكولونيالية الغربية توظيفاً فعّالاً في مشروعها، وفي بسط هيمنتها على الشعوب المستعمَرة. وقد اشتغل على هذا البعد في جميع كتبه، ولا سيما كتابيه *الاستشراق* و*الثقافة والامبريالية*. وقد أحدثت كتبه على نحو عام ثورة في دراسات الشرق الأوسط، وأسهم في خلق مجالات معرفية جديدة، وفي مقدمتها النظرية ما بعد الاستعمارية الكولونيالية. يتألف البحث من ستة محاور رئيسة؛ أولاً: النقد ما بعد الاستعماري في سياق النقد ما بعد الحداثي. ثانياً توظيف الرواية في مشروع الهيمنة عند الامبريالية الغربية أو الرواية منجز غير بريء. ثالثاً: تشويه الحسّ السليم وأهمية الفضاء في الثقافة الامبريالية. رابعاً: الغرب والهوية السكونية. خامساً: الرواية المضادة السرد البديل بوصفها وسيلة لمحاربة الهيمنة الغربية. سادساً: القراءة الطباقية ونوعية القارئ.

الكلمات الدليلية: النقد الادبي، النقد مابعد الاستعماري، ادوارد سعيد، الثقافة والأمبريالية، نقد الكتاب.

١. المقدمة

على الرغم من أنّ العصر الكولونيالي قد ولّى، وعلى الرغم من استقلال الدول والشعوب المستَعمَرة من نير الاحتلال العسكري المباشر ومن جور الانتداب المباشر، إلاّ أنّ الممارسة الامبريالية لم تنته، إذ تسعى الدول العظمى جاهدة على الإبقاء على نفوذها الاقتصادي والسياسي والعسكري، في الدول

*. الكاتب المسؤول: yadgar.jamsheer@su.edu.krd

التي كانت في بدايات القرن العشرين ومنتصفه خاضعة لها، مثل دول العراق وأفغانستان والجزائر وإيران وكوبا، ومتى فكرت هذه الدول بالاستقلال السياسي، وفكرت بالتخلي عن التبعية الاقتصادية، تعرضت للتدخل المباشر في شؤونها الداخلية.

يرتبط مشروع النقد ما بعد الاستعماري، بالدرجة الأساس بالباحث والمفكر الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد[١] ، الذي اشتغل في البدء على الأدب الانجليزي، فكتب أطروحته للدكتوراه عن الكاتب الانجليزي من أصل بولندي جوزيف كونراد صاحب رواية قلب الظلام. إلاّ أنّ نكسة العرب في فلسطين سنة ١٩٦٧ شكلت انعطافة فكرية لديه، فتحوّل اهتمامه إلى مجالات الثقافة والهوية والهيمنة والصراع العربي والإسرائيلي.

يرى إدوارد سعيد أنّ المؤرخين الغربيين يبدؤون عند ذكرهم لتاريخ الحضارة البشرية، باليونان ثم الرومان ثم مرحلة التخلف وعدم الاستقرار في أوروبا، ويقفزون على الحضارة الإسلامية ولا يذكرون شيئاً منها سوى كونها ناقلة وحافظة للتراث الفلسفي الإغريقي من الضياع، ثم عصر التنوير فالحداثة وهلم جرا. فينتقد إدوارد سعيد هذا التعامل الإجحافي، لهذا يخصص كتاب *الاستشراق* للحديث عن هذا الغمط لحقوق الآخرين، كما ينتقد بشدة النظرة المسبقة الجاهزة لدى الغربيين تجاه الشرق والعالم العربي. ويلقي في كتابه *الثقافة والامبريالية* الضوء على استعانة الكولونيالية في مسعاها الاستعلائي على المعرفة، فجعلت من الرواية مجالها المفضل.

٢. النقد ما بعد الاستعماري في سياق النقد ما بعد الحداثي

هناك تداخل واضح بين نظريات المابعد مثل نظريات ما بعد الحداثية، وما بعد النسوية، وما بعد البنيوية، وما بعد الصناعية، ولا يمكن أن تكون ما بعد الكولونيالية استثناء من هذا التداخل (راغب، ٢٠٠٣: ٥٥٠). وقد ظهر مصطلح ما بعد الاستعمار للمرة الأولى في المجال السياسي، عندما وصفت به الدول التي تخلّصت من سيطرة الإمبراطوريات الأوربية وسطوتها، في أعقاب الحرب العالمية الأولى، لكنّ المصطلح لم يكتسب معناه في المجال الثقافي والنقدي إلاّ في الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، وذلك عبر الكتابات التي أنتجت نسقًا ثقافياً وبلورت أفكارا حول مواضيع عديدة، تدور حول السيطرة السياسية والاجتماعية بين طرفين متناقضين يمثل المستعمَر حدها الأول، ويمثل المستعمِر

حدها الثاني (أشكروفت وآخرون، ٢٠٠٥: ٥٥٠). من هنا فإنّ منهج ما بعد الاستعماري – إلى حد كبير – ذو توجه سياسي يسعى إلى تفكيك الحدود والبيئات التي تكرس الهيمنة والسيطرة والسطوة، وترسخ علاقات بين قوى غير متكافئة من خلال تقابلات ثنائية مثل الأنا والآخر ونحن وهم والعالم الأول والعالم الثالث، والأبيض والأسود أو الأصفر (راغب، ٢٠٠٣: ٥٥٠).

يرى النقد ما بعد الاستعماري أنّ نصوص ما بعد الكولونيالية تنطوي على هدف سياسي أكثر تحديداً، ويتمثل في الخلخلة المستمرة للسلطة السياسية والثقافية للإمبريالية؛ ولذلك فإن ما بعد الكولونيالية، لا ترتبط بما بعد الحداثية فحسب، بل بالخطابات النسوية والخطابات التي تقوم على أساس طبقي وعرقي، لأنها تعمد كلها إلى استخدام صيغ أدبية ومناهج فكرية متشابهة. لهذا تركز التحليلات والتفسيرات النقدية في النقد ما بعد الكولونيالي أو ما بعد الاستعماري (postcolonial) أساساً على العلاقات الممتدة بين النصوص والتواريخ والثقافات (راغب، ٢٠٠٣: ٥٥٠-٥٥٢).

يرتبط هذا التيار النقدي بكشف خطاب الهيمنة في المشروع الامبريالي، وهو يسعى إلى تبرير صراعات قديمة بحصيلة حالية أفرزت ردود فعل أدباء الهوامش، وتطوّرت مديات هذا التيار النقدي الصاعد، فمهّد الطريق لظهور نصوص مضادة أو سرديات بديلة للأدب الاستعماري. وقد أدرج هذا التيار في مشروع نقد ما بعد الحداثة، ضمن النقد الثقافي (علوش و أسليم، ٢٠١٥: ١٢٣). فأصبح مصطلح ما بعد الاستعمار تسمية لنظرية في الدراسات الثقافية والنقد الأدبي، إذ يصف ستيفن سليمون أدب ما بعد الكولونيالية، بأنّه شكل من أشكال النقد الثقافي والتحليل النقدي الثقافي، كما أنه منهج لتحرير مجتمعات بأسرها من شفرات الهيمنة التي ترتدي أقنعة الهيكلة الثقافية، فضلاً عن أنه في حقيقة أمره نوع من الاشتباك الجدلي مع عملية إنتاج المفهوم الثقافي التي تتم في إطار الهيمنة (راغب، ٢٠٠٣: ٥٥١). وقد شكلت الآثار السلبية التي خلفتها الحقبة الامبريالية في الشعوب المستعمَرة الأساس الذي ترتكز عليه مصطلحات الأدب ما بعد الكولونيالي (بعلي، ٢٠٠٧: ١٢). ويشمل مصطلح أدب ما بعد الاستعماري الخطابات، أو النصوص أو المدونات التي أنتجت أثناء وبعد جلاء القوى الاستعمارية، تلك الخطابات أو النصوص التي تحمل رؤية انتقادية، وتقويضية، ومناهضة للمشروع الغربي الامبريالي (هاتو هاشم، ٢٠١٣: ١٧١-١٧٢). ما يعني أنّ مصطلح الخطاب النقدي مابعد الكولونيالي يشير إلى فاصلة زمنية/ تاريخية مرحلة الكولونيالية ومرحلة ما بعد الكولونيالية

المتمثلة في التحرر والاستقلال، فالأدب والنقد الذي كُتب تحت تأثير الوضع الذي خلّفته الإمبريالية هو أدب ونقد ما بعد الكولونيالية (ثابت، ٢٠١٤: ١٠٤).

على الرغم من وجود إشارات إلى هذا النوع من النقد لدى دارس أمريكي في بدايات القرن التاسع عشر اسمه واشنطن إرفينغ، وذلك في عمله (The Sketch Book, 1819) عندما أشار إلى أنّ الكُتّاب الأوروبيين القدامى لم يتركوا لنا كتابات وصفية، مفصلة وموضوعية، عن الأخلاق والعادات النابهة التي ازدهرت لدى المجتمع الأمريكي في ذلك الوقت. ومع ذلك؛ فإنّ نمط هذه الدراسات، ذاته، يظل تقليدياً في طريقته وأسلوبه: فنحن، لا نجد هناك، شيئاً أمريكياً بالمعنى الحالي لأمريكا (الغذامي، ٢٠٠٠: ١١٤-١١٥). فإنّ فرانز فانون (Frantz Fanon): (١٩٢٥-١٩٦١) الطبيب النفسي، والفيلسوف الاجتماعي الزنجي الذي اعتبر وكيل الحقيقة المنتهكة والمتحوّلة؛ هو المبشر الأول بنظرية ما بعد الاستعمار، ويتضح تأثيره الواسع في أعلام النظرية النقدية ما بعد الاستعمارية، إذ نجد إنّ إدوارد سعيد جعل من فانون المدافع عن سرد التحرير المضاد الذي ينتمي إلى حقبة ما بعد الحداثة. وعلى الرغم من أهمية دور فانون في هذا المسار الثقافي. فإنّ إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣) هو الركيزة الأساسية، والمنظّر الرئيس لنظرية ما بعد الكولونيالية، ليتحول إلى اتجاه نقدي ما بعد حداثي، ضمن منظومة النقد الثقافي، ولا سيما من ناحية مفهومها المركزي الكاشف عن تمفصلات الثقافة والقهر الإمبريالي، في إطار سعيه الحثيث إلى فكّ الاستعمار عن العالم الثالث. وحاول إدوارد سعيد في هذا المجال أن يلزم اقتفاء الأثر السياسي للكتابة، عبر قراءة ثقافية تعيد النقد إلى العالم، فالنص هو حادثة ثقافية لا بد من ربطه بمظاهر الدنيا السياسية والاجتماعية والثقافية. فالنصية في رأي سعيد غير مقنعة. ومن هنا يبدو إدوارد سعيد حريصاً على تحفيز الوعي النقدي وتنشيطه (ثابت، ٢٠١٤: ١٠٥).

وقد تركت أعمال إدوارد سعيد أثراً كبيراً في الباحثين والمنظرين اللاحقين للنقد ما بعد الاستعماري؛ أمثال هومي بابا، وغياتري سبيفاك وآنيا لومبا.

٣. توظيف الرواية في مشروع الهيمنة عند الامبريالية الغربية أو الرواية منجز غير برئ

يذهب إدوارد سعيد في كتابه *الثقافة والإمبريالية* إلى أنّ الرواية كانت عظيمة الأهمية في صياغة وجهات النظر، والإشكالات، والتجارب الإمبريالية، إذ يرى الكاتب أن كلّ روائي وكلّ ناقد أو منظّر للرواية

الأوروبية يلحظ طبيعتها المؤسساتية، فالرواية متصلة بصورة أساسية بمجتمع الطبقة الوسطى، وهي بعبارة شارل موراز، ترافق بل هي بحق جزء من فتح المجتمع الغربي من قِبل ما يسميه: بالفاتحين البرجوازيين. إلاّ أنّ هذا الارتباط لم يخل من شوائب وتعقيدات، فلم تكن الرواية بعيدة عن طبيعة المجتمع البرجوازي في بداية نشوئها، وأثناء ازدهارها واستفحال أمرها. فمما لا يقلّ دلالة أنّ الرواية دشنت في انكلترة بروبنسون كروزو لدانيال ديفو، وهي رواية بطلها مؤسس لعالم جديد، يكون الغربي مركزه. ولا يقتصر الأمر على روائي واحد، بل نجده عند أوستين، وديكنز، وثاكري، وجورج إليوت، وفيلدنغ، وريتشاردسون، وسمولِت، وستيرن... إنّ هؤلاء الروائيين يموضعون عملهم في بريطانيا، ويستمدّونه منها؛ بريطانيا بوصفها فضاء محلياً، وبريطانيا بوصفها قوة امبريالية عالمية كبيرة. ولا يسعى إدوارد سعيد إلى القول بأن الرواية – أو الثقافة بالمعنى الواسع – هي التي أدّت إلى الامبريالية، بل إنّ الرواية من حيث هي مصنّعٌ ثقافي من مصنّعات المجتمع البرجوازي الطبقوسطي، والامبريالةَ غيرُ قابلين للخطور بالبال منفصلين إحداهما عن الأخرى. إنّ الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية الرئيسة حداثة زمنياً، وإنّ نشوءها هو الأكثر قابلية للتاريخ، وحدوثها هو الأكثر غربية، ونسقها المعياري للسلطة الاجتماعية هو الأكثر بنْيَنةً. ولقد حصّنت الرواية والامبريالية إحداهما الأخرى إلى درجة يستحيل معها، قراءة إحداهما دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى.

يكاد ينفرد إدوارد سعيد، من بين نقاد الرواية ودارسي تاريخ الرواية، في ربط ازدهار الرواية الغربية بالحركة الامبريالية، وفي هذا يستشهد سعيد بقول وليم بليك: إنّ أساس الامبراطورية هو الفنون والعلوم. أزِلهما أو حطّ من قدرهما تختف الامبراطورية. إنّ الامبراطورية لتتبع الفن، وليس العكس كما يفترض الانكليز. ثم يذهب إلى حد القول إنّ الرواية الأوروبية كما نعرفها اليوم ما كانت ستوجد في غياب الامبراطورية؛ وبالفعل فإنّنا إذا درسنا البواعث التي سببت نشوءها فسنرى الالتقاء – البعيد تماماً عن أن يكون عرضياً – بين أنساق السلطة السردية المشكلة للرواية، من جهة وتشخّص عقائدي يتبطّن النوع نحو الامبريالية، من جهة أخرى؟ فقد كانت القوة البريطانية ذات طاقة على التحمل والديمومة وكانت تعزز باستمرار. وفي المجال الثقافي المرتبط بهذه القوة والذي كثيراً ما يكون ملاصقاً لها، تمّ إحكام تلك القوة والإفصاح عنها في الرواية، التي لا يمكن أن نعثر على حضورها المركزي المستمر بصورة مماثلة في أي مكان آخر (سعيد، ٢٠٠٤: ٥٨ و٦٠–٦٧ و ٨٣ و ١٤٢–١٤٥).

وتأكيداً لهذا التحليل، وربط نشأة الرواية بالامبريالية؛ نجد أنّ الأدب الانجليزي في بريطانيا، كان معنيّاً في تلك الحقبة بالرواية، بسبب نزعتها الامبريالية التوسعية، بخلاف الأدب الانجليزي الأمريكي الذي اتجهت عنايته، أكثر من أي مكان آخر، إلى القصة القصيرة الموجزة (short story)، لأنّ أمريكا لم تتحوّل بعد إلى قوة امبريالية. وقد برهنت السنوات الثلاثون والأربعون من القرن التاسع عشر، بجلاء، على ميل النثر الأمريكي إلى تطوير جنس القصة القصيرة، بخلاف ما كان سائداً في بريطانيا التي ازدهرت الرواية فيها ازدهاراً كبيراً. فالجغرافيا والرغبة في تجاوز الفضاء المحلي، كان من أبرز عوامل انتشار الرواية. وإذا كانت الرواية أداة التنوير المفضلة، فإنّ الامبريالية حولتها إلى الأداة الفعالة للإخضاع؛ إذ وظفت الرواية، وتحوّلت إلى مجال حيوي عند القوى الامبريالية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، من أجل بسط سيطرتها الامبريالية، وإخضاع الشعوب المستعمَرة، فقد حققت الرواية الواقعية الأوروبية العظيمة واحداً من أهدافها الرئيسة، إذ دعم هذا النوع من الرواية بشكل لا يكاد يكون ملحوظاً إقرار المجتمع للتوسع فيما وراء البحار، وهو إقرار، بأنّ القوة الأنانية التي توجّه الامبريالية ينبغي أن تستغلّ ألوان الحماية التي توفرها الحركات التي لا تعمل بدافع من الأهواء؛ مثل الإحسان والتصديق، والدين، والعلوم، والفنون والآداب. ففي كل مكان تقريباً من الثقافة البريطانية والفرنسية، خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، نجد إلماعات إلى حقائق الامبراطورية، لكنّها قد لا ترد في مكان بقدر من الانتظام والتواتر يفوق ورودها في الرواية البريطانية. وتشكل هذه الإلماعات في مجموعها، ما يسمّيه إدوارد سعيد «بنية من وجهات النظر والإحالات». فالامبراطورية تحولت عند الروائيين البريطانيين جميعهم أمثال: جين أوستين، وكبلنغ، وكونراد، وأرثر كونان دويل، ورايدر هاغارد، وآر. إل. سيفسن، وجورج أوورول، وجويس كاري، وغي. أم. فورستر، وتي. إي. لورنس، إلى إطار مشهدي حاسم (سعيد، ٢٠٠٤: ٥٨ و ٦٠-٦٧ و ٨٣ و ١٤٢-١٤٥).

ويستشهد إدوارد سعيد من أجل إظهار دور الرواية الاستعمارية الخطير في إخضاع الشعوب ثقافياً، قبل غزوها وإخضاعها عسكرياً برواية *توقعات عظيمة* (١٨٦١) لديكنز، ورواية *نوسترومو* (١٩٠٤) لكونراد. تدور رواية *توقعات عظيمة* حول أستراليا بوصفها مستعمرة للعقاب في أواخر القرن التاسع عشر، كي يتاح لإنكلترا أن تنقل جماعات من المجرمين فائضة، غير مرغوب فيها وغير قابلة للإصلاح، إلى مكان كان قد رسم معالمه أصلاً القبطانُ كوك، وكي تلعب أستراليا أيضاً دور مستعمرة

تعوِّض عن فقدان المستعمرات الأمريكية. يرى إدوارد سعيد أن الرواية تركز على دور مكتشفين، وسجناء، ومتخصصين بعلم الأعراق الوصفي، وساعين وراء الربح، وجنود، في رسم معالم قارة هائلة وخالية نسبياً من السكان، كل منهم في إنشاء يزاحم إنشاء الآخرين، أو يزيحه عن محله أو يحتويه. ولم يكن الحظر المفروض على الشخصية الرئيسة المنفية ماغويتش إلى أستراليا جزائياً وحسب بل كان امبريالياً أيضاً: فالرعايا قد ينقلون إلى أماكن مثل أستراليا، لكنهم لن يسمح لهم بالعودة إلى الفضاء الحواضري من جديد، كما تشهد بذلك أعمال ديكنز الروائية. ومع حلول منتصف القرن التاسع عشر، لم تعد الامبراطورية مجرد حضور طيفي، ولم تعد تتجسد في مجرد ظهور ممقوت لمدان هارب، بل غدت – في أعمال كتاب مثل كونراد، وكبلنغ، وجيد، ولوتي – مجالاً مركزياً للاهتمام والعناية (سعيد، ٢٠٠٤: ٥٨ و ٦٠-٦٧ و ٨٣ و ١٤٢-١٤٥).

يحلّل الكاتب إدوارد سعيد في كتابه *الثقافة والإمبريالية*، التواطؤ بين نشأة الإمبراطورية الاستعمارية، وتطورها وتوسّعها، ونشأة الرواية الحديثة في الغرب، واكتمال خصائصها الفنية، إذ يرى إدوارد أنّ الرواية كانت من أكثر الأشكال الأدبية الجمالية التي لم تعبّر عن التوسعات الاستعمارية فحسب، وإنما ارتبطت بها. وما يستحق تأملاً خاصاً في تأويل سعيد لازدهار الرواية الغربية، وازدهار الرواية في العالم المستعمَر، تصورهُ الفضائي الجغرافي. الراواية، بل السرد عامة، من هذا المنظور، حركة في الفضاء، تجاوزٌ لحدود الذات الثقافية إلى فضاءات تقع خارجها. وذلك يتم في أوروبا في صيغة الاستعمار والغزو والفتح لعوالم خارجية. ويتم في العالم المستعَمر بحركة معاكسة. بل يذهب إلى أبعد من ذلك ويربط النقد الأدبي المرتبط بالرواية الغربية بالسيطرة الإمبريالية، إذ يقول «كانت الرواية ذات شأن عظيم في تشكيل وجهات النظر، والإشارات، والتجارب الامبريالية. وأنا لا أعني أنّ الرواية وحدها كانت هامة، بل إنني أعتبرها المشروع الجمالي الذي تمثل علاقته بالمجتمعات الموسعة في بريطانيا وفرنسا ظاهرة شيّقة بصورة خاصة للدراسة. يتمثل النموذج الأولي للرواية الحديثة الواقعية في *روبنسون كروز* لدانيال ديفو، ومن المؤكد أنّه ليس من قبيل المصادفة أنها تدور حول أوربي يخلق لنفسه إقطاعية على جزيرة غير أوروبية نائية. لقد ركّز قدر كبيرٌ من النقد الحديث على السرد الروائي، غير أنّ موقع هذا السرد في تاريخ الامبراطورية وعالمها لم يؤوّل إلاّ قدراً ضئيلاً من الاهتمام. تصلح رواية *روبنسن كروز* – وقد اتخذها الكاتب بوصفها أنموذجاً تدشينياً لنمط من التمثيل الاستعماري الاختزالي للعالم – أن تكون موضوعاً

لبيان الكيفية التي يقوم السرد الروائي فيها بتمثيل العالم طبقاً للرؤية الاستعمارية، فقد نشرت الرواية في عام ١٧١٩، وعبّرت رمزياً عن طبيعة التوسعات الاستعمارية بصورة تتراوح بين المباشرة والتضمين، فالبطل فيها مشبع بالقيم الدينية، كما تبلورت في المذهب البروتستانتي، وعلى هذا تترتب نتيجة مهمة وهي أنّ روبنسن كروز ينطلق من مرجعية أخلاقية ترى أنّ العالم البروتستانتي هو الأنموذج الأكفء للعالم المتمدّن، فيصبح احتذاؤه ضرورياً في رهان التحديث» (سعيد، ٢٠٠٤: ٥٨).

وقد كانت استعانة الإمبريالية بالسرد كبيرة، وأنّ هذا الترابط – حسب إدوارد سعيد – كان نتاجاً لنوع من التفاعل الذي يأخذ على السطح شكلاً متوازياً بين الظاهرتين الاستعمارية والسردية، بل هو يربط بين انتشار الرواية وانتشار الإمبراطورية، فيقول مترجم الكتاب كمال أبو ديب:

> «في تأويلاته الجديدة في هذا الكتاب، يطرح سعيد، مثلاً، نظرية ثالثة تضاف إلى اثنتين مشهورتين في نشأة الرواية وتاريخها؛ ويفسر انتشار الرواية الملازم لانتشار الإمبريالية وفكرة الإمبراطورية بطريقة تجلُّ عن أن تُقارن بنظرة باختين أو إيان واط، مع أنه تتمثلهما. فهو يربط بين تجاوز الفضاء الجغرافي وبين الرواية، وبين حركة التوسع الإمبراطوري وبين ازدهار الرواية، لا ربطاً آلياً جامداً، بل ربطاً حيوياً خلاقاً، يجلو كيف تتجسد الوشائج في بنية الرواية ذاتها وآليات تشكيلها، ممّا لا يفعله واط أو باختين» (سعيد، ٢٠٠٤: ١٣).

وتأكيداً على الدور الخطير للمنتج الأدبي والثقافي، يرى – إدوارد سعيد – أنّ المنتجات العظيمة للثقافة هي منتجات محسوسة واستثنائية؛ وبالإشارة إلى الأعمال الجمالية، فإنّه يمكن لهذه النتاجات أن تكون أعمالاً عظيمة من إبداع الخيال وأن تضم – في الوقت نفسه – وجهات نظر سياسية ظاهرة البشاعة والقبح: وجهات نظر تسلخ الإنسانية من غير الأوروبيين، وتُبرز شعوباً وأصقاعاً بأسرها خاضعة ودونية، جاعلة إياها مقتضية حكمَ الأوروبيين. والمثال على الأبرز على ذلك رواية *ديفيد كوبرفيلد* لشارلز ديكنز، الذي يهاجر فيها ولكنز ميكوبر بسعادة إلى أوستراليا التي تظهر فيها قوة الإمبراطورية البريطانية عن طريق تسليط الضوء على شخصية مجرم محكوم عليه بالنفي إلى أستراليا بوصفها مستعمرة – منذ نهاية القرن الثامن عشر – لعقاب المدانين، ومع حلول منتصف القرن التاسع عشر، لم تعد الإمبراطورية مجرد حضور طيفي، ولم تعد تتجسد في مجرد ظهور ممقوت لمدان هارب بل غدت – في أعمال كتّاب مثل كونراد، وكبلنغ، وجيد، ولوتي – مجالاً مركزياً للاهتمام والعناية. فرواية نوسترومو لكونراد (١٩٠٤)، تموضع في واحدة من جمهوريات أمريكا الوسطى مستقلةٍ بخلاف الأطر

المشهدية الأفريقية والشرق آسيوية الاستعمارية لرواياته السابقة، وخاضعة في الوقت نفسه لمصالح خارجية بسبب منجم هائل للفضة فيها. إنّ أكثر جوانب الرواية بالنسبة للإمريكي المعاصر هو علمها بالغيب: فكونراد يتنبأ بالاضطرابات وسوء الحكم التي يستحيل إيقافها في جمهوريات أمريكا الوسطى إنّ حكمها، يقول كونراد مقتبساً بوليفار، مثل حرْثِ البحر، وهو يفرد بالتركيز على الطريقةَ الخاصة لأمريكا الشمالية في التأثير على الأوضاع بصورة حاسمة لكنها لا تكون مرئية. ثم يعلق إدوارد سعيد على هذا الأنموذج من رواية كونراد قائلاً: إنّ قدراً كبيراً من بلاغيات النظام العالمي الجديد الذي أعلنته الحكومة الأمريكية بعد نهاية الحرب الباردة – بكل ما فيها من تهنئة للنفس فوّاحة، وانتصاروية مكشوفة، وإعلانات جليلة للمسؤولية – يمكن أن يكون قد كتب من قبل هولرويد، شخصية كونراد عندما صرح: نحن الأولون، الرقم واحد؛ من المحتم علينا أن نقود؛ نحن رمز الحرية والنظام، وما إلى ذلك. وليس ثمة أمريكي واحد يتمتع بالمناعة ضد هذه البنية من المشاعر، ومع ذلك فمن النادر أن يتم تأمل التحذير المبطّن الذي تحتويه صور هولرويد وغولد، ذلك أنّ بلاغيات القوة تنتج بسهولة بالغة وهماً بالأريحية حين تستخدم في إطار مشهد إمبريالي. إنّ كونراد هو السلف الممهّد لوجهات النظر الغربية عن العالم الثالث التي يجدها المرء في أعمال روائيين متباينين تبايُن غراهام غرين، و في. إس. نيبال، وروبرت ستون، ومنظّري الإمبريالية مثل حنّة أرندت، وكُتّاب الرحلات، ومخرجي الأفلام، والمماحكين الذين تخصّصوا في في نقل العالم غير الأوروبي إلى الغرب إمّا من أجل تحليله والحكم عليه أو لإشباع الأذواق الغرائبية للمتلقين في أوروبا وأمريكا الشمالية. لأنّ كلّ ما يستطيع كونراد أن يراه هو عالمٌ خاضعٌ كلياً للغرب الأطلسي، عالمٌ لا تؤدي فيه أيّةُ معارضة للغرب إلاّ إلى تأكيده قوة هذا الغرب الخبيثة الماكرة. وما لا يستطيع كونراد أن يراه هو البديل لهذه الجملة التي لا تضيف شيئاً. فهو لم يكن قادراً على أن يفهم أنّ للهند، وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية أيضاً حيوات وثقافات لها تكاملياتُها التي لا يسيطر عليها سيطرة كاملة الأمريكيون الإمبرياليون (سعيد، ٢٠٠٤: ٦٠-٦٦ و ١٣-١٦).

والمثال الآخر على أعمال كهذه رواية كيم لكبلنغ، وهي رواية عظيمة، وعمل إمبريالي بعمق، إذ ينكر رديارد كبلنغ في روايته كيم على الهنود – على الرغم من الجمال الأدائي للرواية – إمكانية التغير والتطور السياسي، إذ تصور رواية كيم عالماً متعالياً للبريطاني المسيطر، فلا تضنّ بشيء على الأوروبي المغترب. وتجلو الرواية كيفية تمتع صاحب سيّد أبيض بالحياة في هذا الفضاء المعقّد الخصيب؛ ويريد

إدوارد سعيد أن يطرح أنّ غياب المقاومة للتدخل الأوروبي في هذه الرواية – مرمّزاً إليه بمقدرات كيم على التنقل عبر الهند دون أن يمسّه خدش نسبياً – يعود إلى رؤياه الإمبريالية. ذلك أنّ ما يعجز المرء عن تحقيقه في بيئته الغربية الخاصة يغدو قابلاً لأن يحققه في الخارج. أو ليس بوسع المرء في الهند أن يفعل كلّ شيء؟ وأن يكون أي شيء؟ ويذهب إلى كل مكان بأمان من أية عواقب؟ إذ لم تعتمد رواية كيم على تاريخ طويل من سيادة المنظور الأنجلو – هندي فحسب، بل تنبّأت كذلك، باستحالة التمسك بهذا المنظور في إلحاحها على الإيمان بأنّ الواقع الهندي كان يتطلب، بل بحق يستجدي الوصاية البريطانية إلى ما لا نهاية له.

لقد تقصّى إدوارد سعيد التوافق في الأهداف بين الرواية والاستعمار، وامتدّ بذلك إلى ضبط جميع المصادرات السرية التي يقوم بها السرد الروائي، حينما يوضع بوعي أو بدونه تحت تصرف ثقافة ذات منحى استعماري وتوسعي، فالرواية الغربية لم تنج من الضغوطات المعلنة أو المضمرة في إضفاء شرعية على الوجود الاستعماري في المستعمرات النائية من خلال اختزالها للإفريقي أو الآسيوي أو الأمريكي اللاتيني أو العربي إلى أنموذج للخمول، فيما صورت تلك الأراضي على أنها خالية ومهجورة وبحاجة إلى من يقوم باستيطانها وإعمارها، وداخل العوالم المتخيلة التي ينجزها السرد، لا تظهر الشخصيات غير الغربية إلاّ على خلفية الأحداث السياسية، ولا يمكن عدّها محفزّات سردية، يتطور في ضوء وجودها داخل مسار الأحداث، أما الشخصيات الغربية فهي المهيمنة داخل تلك العوالم، فوجود الآخر لا يظهر إلاّ بوصفه جزءاً تكميلياً، لكي يعطي معنى لرسالة الأبيض. ويستنتج إدوارد سعيد أنّ الرواية والاستعمار قد تبادلتا المنافع، فالرواية بتوغلها في عوالم نائية وغريبة، استجابت لرغبات المجتمع البرجوزاي الذي أفرز تطلعات استعمارية، وفي الوقت نفسه أدرجت نفسها في سياق ثقافة المجتمع، واكتسبت مكانة خاصة كونها نوعاً جديداً يحتاج إلى شرعية أدبية، أما الاستعمار فقد وجد فيها أفضل وسيلة تمثيلية لبيان فلسفة التفاضل، بشكل رمزي وإيحائي وغير مباشر، بين الغربي وغيره. وعلى هذا فنهضة الاثنين المتزامنة كانت نتاج سلسلة من التواطؤات بين ظواهر وعلاقات اجتماعية باحثة عن عوالم أخرى خارج المجال الغربي، ونصوص جديدة تبحث عن مكان في عالم أدبي كان مزدحماً بأشكال التعبير الأدبي. وقد لاقى هذا التفسير في نهاية العقد الأخير من القرن العشرين قبولاً مثيراً في الدراسات النقدية الخاصة بالثقافات، وهو تفسير قام على معاينة التناظر بين المشروعين السياسي والثقافي في

الغرب الحديث، وتوصل إلى تضافرهما عبر علاقة التمثيل التي قامت بها الرواية في التعبير عن تطلعات الغرب السياسية، فالمرجعيات قد احتاجت إلى ضرب من التعبير الأدبي لتمثيلها رمزياً فكانت الرواية (سعيد، ٢٠٠٤: ١٠-١١ و ٢٢-٢٣ و ٥٨-٦٧).

٤. تشويه الحس السليم وأهمية الفضاء في الثقافة الامبريالية:

يرى أنطونيو غرامشي أنّ الهيمنة هي سلطة تتحقق من خلال مزج الإكراه بالرضا. وقد ناقش غرامشي – من خلال تعديل اقتراح مكيافيلي بأنّ السلطة يمكن أن تتحقق بالقوة والاحتيال – بأنّ الطبقات الحاكمة تحقّق هيمنتها ليس عن طريق القوة أو الإكراه فحسب، بل من خلال خلق أشخاص قابلين أن يُحكموا طوعاً؛ فالأيدولوجيا جوهرية في خلق الرضا، وهي الوسيلة التي يتمّ من خلالها بثُّ بعض الأفكار، والأهمّ من ذلك، أن يعتقد بأنها صحيحة. والهيمنة لا تتحقق بالتلاعب المباشر أو التلقين فحسب، بل بالتلاعب بالحسّ السليم عند الناس، وبما يسمّيه رايموند وليامز «نظام المعاني والقيم التي يعيشونها.» وهكذا يرى غرامشي الأيدولوجيات بأنها أكثر من مجرد انعكاس للحقيقة المادية، بل يرى أنّ الأيدولوجيات هي مفهومات الحياة التي تتجلّى في كلّ جانب من جوانب الوجود الفردي والجماعي. وباقتراح هذا، لا يهتم غرامشي ببساطة بتوسيع معنى الأيدولوجيا، بل بفهم طريقة الأيدولوجيات في تنشيط العلاقات الاجتماعية، وتنظيم حشود الشعب، وخلق التضاريس التي يتحرّك عليها الرجال، واكتشاف الوعيّ لموقفهم ونضالهم، وهلمّ جرّ (لومبا، ٢٠١٣: ٥٥-٥٧).

وسيراً على خطا غرامشي يرصد إدوارد سعيد الأنساق المضمرة، ويلحظ إعادة صياغة الهويات، ومسارات تشويه الحس السليم، والواقع الحقيقي من قبل أدبيات المستعمِر، وفي مقدمتها الفن الروائي. فيبرز من أجل مسعاه هذا؛ أهمية الفضاء وكيفية توظيفه، في روايات الحقبة الامبريالية الفرنسية للجزائر، ولا سيما عند كامو، بوصفه المؤلف الوحيد من الجزائر الفرنسية الذي يمكن أن يعدّ بتسويغ تام مؤلفاً ذا مقام عالمي. وقد كان كامو، كما كانت جين أوستين قبله بقرن من الزمان، روائياً أسقطت من أعماله حقائق الواقع الامبريالي، الماثلة في أعماله مثولاً واضحاً بانتظار أن ترى؛ وكما في حالة أوستن، فقد بقي من كامو روحيّة قابلة للفصل، روحية توحي بالكونية والإنسانية، على قدر عميق من التنافر مع أوصاف الأمكنة الجغرافية التي تقدّم بشكل عار في الكتابة الروائية نفسها. إنّ فاني تُمسك بروضة

مانسفيلد ومستَنْبَتِ أنتيغوا كلتيهما؛ وفرنسا تمسك بالجزائر، كما تمسك في القبضة السردية نفسها بعزلة مُرْسو الوجودية إلى درجة الإدهاش. وكامو على قدر بالغ من الأهمية في سياق الاضطراب الاستعماري البشع الناتج من مخاض تفكيك الاستعمار الذي مرت به فرنسا في القرن العشرين، إنّه شخصية امبريالية متأخرة جداً لم ترتبط بعمر الامبراطورية فحسب، بل ما يزال باقياً اليوم بوصفه كاتباً كوني النزوع تضرب جذوره في عملية استعمارية صارت الآن نسياً منسياً.

يعتقد إدوارد سعيد أنّه ينبغي عند التصدي لأعمال إلبرت كامو طرح ثلاث نقاط منهجية: الأولى هي مساءلة وتقويض اختيار كامو للإطار المشهدي الجغرافي للغريب (١٩٤٢)، والطاعون (١٩٤٧)، والمجموعة الشيقة جداً من قصصه القصيرة المنشورة بعنوان المنفى والملكوت (١٩٧٥). لماذا كانت الجزائر الإطار المشهدي لسردياتٍ كانت وما تزال مرجعيتها الرئيسة في العملين الأولين تُتأوّل باعتبارها فرنسا بشكل عام، وبشكل أشدّ تخصيصاً: فرنسا تحت الاحتلال النازي؟ إذ يلحظ أنّ الاختيار ليس بريئاً، وأنّ كثيراً مما في الحكايات على سبيل المثال: محاكمة مُرسو هو إمّا تسويغ متستّر أو لاواع للحكم الفرنسي، وإمّا محاولة عقائدية لتجميله. بيد إنّنا إذ نحاول أن نؤسس استمرارية بين كامو بوصفها فناناً فرداً، وبين الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فإننا ينبغي أن نتساءل عمّا إذا كانت سرديات نفسها ترتبط بِ، وتمتاح ميزات من، سرديات فرنسية سابقة لها واستعمارية على نحو أكثر انكشافاً. وإذ نوسع المنظور التاريخي من كامو ككاتب جذاب التفرد في أربعينات وخمسينات القرن العشرين ليشمل الحضور الفرنسي في الجزائر الذي كان قد استمر لقرن من الزمان، فقد يتاح لنا أن نفهم فهماً أفضل ليس لشكل رواياته ومعناها العقائدي وحسب، بل كذلك الدرجة التي يبلغها عمله في الإعراب عن طبيعة المشروع الفرنسي هناك في الجزائر، وفي الإشارة إليها، وجعلها أكثر دقة.

أمّا النقطة المنهجية الثانية فإنها تتعلق بنوع الأدلة الضرورية لمثل هذه الرؤية الأرحب وبالسؤال العلائقي المتصل بمن يقوم بالتأويل. إنّ ناقداً أوروبياً ذا نزوع تاريخي يُحتمل أن يؤمن بأنّ كامو يمثل الوعي الفرنسي المعوّق بشكل مأساوي للأزمة الأوروبية على مشارف إحدى منعطفاتها العظيمة؛ وعلى الرغم من أن كامو اعتبر فيما يبدو المزارع الاستعمارية قابلة للإنقاذ والاستمرار إلى ما بعد عام ١٩٦٠ وهو عامُ وفاته فقد كان ببساطة مخطئاً تاريخياً، إذ إنّ الفرنسيين تنازلوا عن ملكية الجزائر وعن جميع دعاواهم المتعلقة بها بعد سنتين فقط من ذلك. وبقدر ما يومئ عمله بوضوح إلى الجزائر المعاصرة، فإنّ

انشغال كامو العام كان بالوضع الفعلي للشؤون الفرنسية – الجزائرية المعاصرة، لا بتاريخ تغييراتها الاحتدامية في صيرورتها على المدى البعيد. وهو، مع استثناءات متفرقة، يتجاهل أو يتغاضى عن التاريخ الذي ما كان جزائري يشكل الحضور الفرنسي بالنسبة له ممارسة يومية للقوة والسلطة سيتجاهله. ولذلك، فإنّ عام ١٩٦٢ بالنسبة للجزائري يرجّح أن يبدو نهاية لحقبة مديدة بائسة من حقب التاريخ كانت قد بدأت مع وصول الفرنيسيين عام ١٨٣٠، وتدشيناً منتصراً لحقبة جديدة. ومن ثمة، فإنّ تأويلاً ترابطياً تعادلياً لروايات كامو سيتمثل في تأويلها بوصفها تدخلات في تاريخ الجهود الفرنسية في الجزائر، لجعل الجزائر فرنسية والإبقاء عليها فرنسية، لا بوصفها روايات تتنبأ عن حالة مؤلفها العقلية. إنّ احتواء كامو للتاريخ الجزائري وافتراضاته حوله ينبغي أن تقارن بتواريخ كتبها جزائريون بعد الاستقلال، من أجل اكتساب إحساس أكمل بالنزاع بين القومية الجزائرية والاستعمار الفرنسي. وسيكون سليماً أن نعتبر عمل كامو متصلاً تاريخياً بالمبادرة الاستعمارية الفرنسية نفسها وبالمعارضة الصريحة المباشرة لاستقلال الجزائر. وقد ينجح هذا المنظور الجزائري في فتح مغالق جوانب أخفاها كامو، أو استبدها، أو أنكرها، وفي إطلاقها من عقالها. وأخيراً، فإنّ ثمة قيمة منهجية حاسمة في التفاصيل، والأناة، والإلحاح فيما يتعلق بنصوص كامو المضغوطة إلى درجة عالية. ثمة نزوح عند القراء إلى ربط روايات كامو بروايات فرنسية عن فرنسا، لا بسبب لغتها والأشكال التي يبدو أنها تأخذها من سوالف مرموقة مثل أدولف والحكايات الثلاث لكونستان دو روبَسْك وحسب، بل كذلك لأنّ اختياره لإطار مكاني جزائري، وداخل هذا الإطار المكاني يذكر قيام مُرسو بقتل عربي، بيد أنّ هذا العربي لا اسم له، ويبدو دونما تاريخ، دع عنك أن يكون له أمّ وأبٌ؛ وصحيح أيضاً أنّ العرب يموتون بالطاعون في وهران، بيد أنهم دون أسماء كذلك. لهذا يرى إدوارد سعيد أنّ على المرء إيجاد روايات كامو ما ظُنّ ذات يوم أنّها قد نُقّيت منه: تفاصيل عن ذلك الفتح الإمبريالي الفرنسي بشكل متميز الذي بدأ عام ١٨٣٠، مستمراً خلال حياة كامو، ومسقطاً إلى صميم نسيج النصوص وتأليفها. ويؤكد إدوارد سعيد أنّ القصد من هذا التأويل الترميمي ليس انتقامياً، ولا ينوي بعد إقرار الحقيقة أن يلقي اللوم على كامو لأنه أخفى أموراً عن الجزائر في كتاباته الاختلافية مع أنه بذل جهداً مضنياً، مثلاً، في القطع المختلفة المجموعة في كتابه حوليات جزائرية لإيضاحها. ما أريد أن أفعله هو أن أعاين قصص كامو كعنصر في الجغرافية السياسية الفرنسية للجزائر، تلك الجغرافيا التي تم بناؤها منهجياً، واستغرقتْ أجيالاً عديدة

لاستكمالها، من أجل أن نراها رؤية أجلى بوصفها تقدم مسرداً آسراً للنزاع السياسي والتأويلي الهادف إلى تمثيل الأرض نفسها وسكناها وامتلاكها – في الوقت عينه الذي كان البريطانيون يغادرون الهند. إنّ كتابات كامو مفعمة بحساسية استعمارية متأخرة تأخراً فائقاً، بل إنها بطريقة ما حساسية مشلولة، تقوم بأداء حركة امبريالة ضمِن وعن طريق شكلٍ، هو الرواية الواقعية، كان قد تجاوز ببون شاسع إنجازاته العظمى في أوروبا (سعيد، ٢٠٠٤: ٨٣-٨٦ و ١١٨ و ١٣٤-١٣٧ و ١٥١-١٥٢ و ١٩٦-١٩٨ و ٢٣٥-٢٣٦ و ٣٧٤).

٥. الغرب والهوية السكونية

يرى إدوارد سعيد أنّ الرواية على نحو خاص، والسرديات على نحو عام، قد لعب دوراً خطيراً في مسألة الهوية والانتماء، فقد أوجد إدوارد سعيد مدخلاً إلى الثقافات الأخرى كي تدرك أنّ مفهومها عن ذاتها، ما هو إلاّ عملية اختلاق وبناء، قام بها الغرب في معامل الكتاب والأدباء والعلماء والرحالة والسياسيين الغربيين، فقدم الخطاب الغربي الكولونيالي هوية سكونية أحادية الجانب والمنظور، للشرق، وللشعوب المستعَمرة. وليس هذا فحسب، بل أنّه قد أتاح لهم في فهم الممارسة الخطابية، التي تمت فيها هذه العملية، مما أثار من كان عاجزاً عن الكلام، أي التابع، أن يبدأ بتحدي أنماط هذا الخطاب، وتمثيلاته له، وهو ما يمكن أن نطلق عليه المقاومة. إذ كان الهدف من الرحلات التي قادها الأوروبيون سواء أكانوا الشعراء أو الفنانين أو الروائيين إلى الشرق، تعزيز الهوية الخاصة، فالرحلة نحو الاختلاف جاءت للتأكيد على الذات، فاختزل الشرق بكتاب ألف ليلة وليلة، ولهذا تكوّن خطاب الاستشراق **جنسياً** عبر منظور أو بؤرة واحدة (أبو شهاب، ٢٠١٤: ٦٧ و ٧٩-٨٠).

بعد هذا التأسيس؛ تعمّق إدوارد سعيد في مجال **الهوية**، ورآى أنّ الهوية الغربية هوية سكونية، فبدأ يبحث عن الطاقات التي تحرر النفس والثقافة منه؛ إذ هو يؤكد أنّ هذا المبدأ السكوني للهوية الغربية هو مبدأ يشكل في الأساس لباب الفكر الثقافي للعهد الإمبريالي. إنّ الهيمنة، وتهميش الآخر، وسلب هويته، وانتمائه، هي الفكرة الوحيدة التي لم يكد يمسها التغيير إطلاقاً، عبر التبادلات التي بدأت بانتظام قبل نصف ألف قرن من الزمن بين الأوروبيين وآخريهم، فكان دوماً هناك – في نظر الأوروبيين – ثنائية: نحن، وشيئاً: هم، وكل منهما مستقر تماماً، جلي، مبين لذاته، وشاهد على ذاته، بشكل

حصين منيع. وهو انقسام يعود إلى الفكر اليوناني عن البرابرة؛ لكن أياً كان من ابتكر هذا النوع من فكر الهوية، فإنه مع حلول القرن التاسع عشر كان قد أصبح العلامة المائزة للثقافات الإمبريالية، فضلاً عن تلك الثقافات التي كانت تسعى إلى مقاومة التطاولات العدوانية الأوروبية عليها. لهذا فإنّ على المرء أن يربط بنيات القصة المسرودة بالأفكار، والتصورات، والتجارب التي منها تستمد الدعم. وهذا لا يعني تحوّل التحليل إلى عملية آلية، لأنّ المؤلفين لا يتحدّدون بصورة آلية بالأيدولوجيا، أو الطبقة، أو التاريخ الاقتصادي. بيد أنّ المؤلفين كائنون إلى حد بعيد في تاريخ مجتمعاتهم، يشكلون ويتشكلون بذلك التاريخ وبتجربتهم الاجتماعية بدرجات متفاوتة. إنّ الثقافة والأشكال الجمالية التي تنطوي عليها لتُشتق من التجربة التاريخية. إنّ السرد يلعب دوراً كبيراً في المسعى الإمبريالي، فليس من المفاجئ في شيء أنّ إنجلترا وفرنسا بوصفهما إمبراطوريتين كبيرتين ومركزيتين حتى منتصف القرن العشرين، تمتلكان تراثاً غير منقطع من الكتابة الروائية لا نظير له في أي مكان آخر (سعيد، ٢٠٠٤: ١٠-١١ و٢٢-٢٣ و ٥٨-٦٧).

وتعد - بعد ذلك - قراءة إدوارد سعيد لكامو أخطر ما عرفته الدراسات السردية والثقافية من قراءات، لأنها تسلخ عن كامو سريتَه وسحر ما لفعه به القارئ الغربي من ولع بالشرط الإنساني؛ بل إنّ سعيداً يحيل هذا التعبير إلى مصدر للسخرية اللاذعة، إذ يكشف أنّ جوهر عمل كامو يتمثل في الدفاع عن الإمبريالية الفرنسية، وإلغاء التاريخ الجزائري السابق على استعمار فرنسا؛ فحسب قوله إنّ سرديات كامو أرست مطالبَ صارمة وسابقة وجودياً على جغرافية الجزائر، وتدور روايتاه الغريب والطاعون حول موت عرب، وهو موت يبرز ويفعم بصمت مصاعب الضمير والتأمل التي تعانيها الشخصيات الروائية الفرنسية. وعلاوة على ذلك فإنّ بنية المجتمع المدني التي تقام بنصاعة بارزة - بلدية المدينة، والجهاز القضائي، والمستشفيات، والمطاعم، النوادي، وأماكن التسلية ووسائلها، والمدارس - هي بنية فرنسية، على الرغم من أنها تقوم في الغالب بإدارة شؤون غير الفرنسيين. وإنّ التطابق بين الطريقة التي يكتب بها كامو عن ذلك كله وبين كيفية تصوير الكتب المدرسية الفرنسية إياه تتطابق؛ فالروايات والقصص القصيرة تروى نتيجة انتصارٍ تحقق ضد شعب مسلم محيّدٍ، ممزّقٍ، منزوع الهوية، أُغتصبت حقوقه في امتلاك أرضه اغتصاباً حاداً. وكامو، بتأكيده وتعزيزه بهذه الطريقة للأولوية الفرنسية، لا يشكك ولا يخرج عن الحملة من أجل السيادة التي شُنّت ضدّ مسلمي الجزائر لما ينوف

على مئة عام. لهذا يفسر إدوارد سعيد المكونات الأساسية لعمل كامو في إطار إشكاليات معرفية مرتبطة بمنظوره الإمبريالي. وفي قراءته لفيردي، وجين أوستين، وغيرهما، يسلخ عن عمالقة الفكر الغربي الإهاب المفتعل الذي تلفعوا به ويكشف منظورهم الحاقد، المتعالي عدم الإنساني، المشبع بروح العنصرية والتفوقية والاستغلال الاقتصادي والعرقي، والرؤية الأحادية (سعيد، ٢٠٠٤: ٦٠-٦٦ و ١٣-١٦).

٦. الرواية المضادة السرد البديل بوصفها وسيلة لمحاربة الهيمنة الغربية

أدّى الخطاب الغربي المتمركز حول ذاته، إلى إنتاج خطاب يعمق فكرة دونية الشرق، عند الغرب، والنيل منه، مما استدعى خطاباً مناقضاً. وبالاتجاه نفسه، فهنالك الكثير من المفكرين والأدباء، الذين عملوا على تشكيل خطاب مضاد مقاوم للتمثيلات الغربية، بالاتكاء على المقولات نفسها، التي أتى بها الغرب (أبو شهاب، ٢٠١٤: ٦٧)، فما بعد الكولونيالية هي في الأساس تحدّي للتمثيلات والسرديات التي قولبت الأصليين كدونيين، ومتخلفين، ولا عقلانيين، أو أظهرتهم بمظهر الكسالى، ولهذا فإنّ نضال الشعوب التي استعمرت تحديداً، ودور المثقفين في هذا النضال، هو صنع تاريخ للمضطهدين والمظلومين، أو بطريقة أخرى العمل على استرجاعهم مرة أخرى كمرئيين وقابلين للنمو والحياة والتطور.

يرى الباحثون المنتمون للشعوب المستعمَرة، والنقاد المشتغلون على حقل النقد ما بعد الاستعماري؛ أنّ أحسن طريقة لنسف الاستعارات الخالقة للهيمنة هو إذكاء مرويات مضادة، وسرديات موازية، وصناعة استعارات مضادة، تفضح استعارات الهيمنة، وتخلخل نسقها الظاهر والمضمر، لتبين الصورة كاملة، ولكي تكون الاستعارات مرتعاً لمحفل متعدد من المرايا المتقابلة. ويضربون المثل – في هذا السياق – بحالة فرنسا في عصر الأنوار، إذ تم التغلب على ضمير الأنوار إما بواسطة حيونة الآخر أو بواسطة مبدأ الفراغ. لقد عاشت فرنسا مثلا، حالة عنيفة في التاريخ الحديث جعلتها تقضي على اقتصاد الإقطاع والرؤية اللاهوتية للعالم، وفق مبادئ إنسانية مثل حرية الفرد والأخوة البشرية والمساواة مع الآخر. إنّ إلصاق صفة الكونية بهذه الأبعاد الإنسانية في خطاب الأنوار أزّم كثيرا العلاقة بين الأوروبي «المستنير!» والشرقي «المتخلف!» في سياق الاستعمار؛ فإذا كانت مبادئ الأنوار تتسم بالكونية فلماذا لا تطال الآخر الشرقي، فمن التناقض الكبير أن تعمم المقولات ثم تستثنى في

الخطاب الاستعماري. لماذا نزعت صفة الحرية والمساواة عن الأهالي في كنف إيديولوجية أنوارية تؤمن بالإنسان؟ (بوعزيز)

الرواية المضادة أو السرد البديل شكل من أشكال الثقافة المضادة للسرود الكولونيالية، فهي تواجه الهيمنة الغربية في محاولة منها لجعل ثنائية الغرب/ الآخر موضوعاً لقراءة مقولاته وتفكيك نظام علاماته، وإزاحة الثنائيات الميتافيزيقية التقابلية من قبيل: المعرفة/ الجهالة، والتقدم/ التخلف، والمركز/ الهامش، والأسود/ الأبيض، وغيرها من التراتبات الهيراركية (hierarchy)، فضلاً عن ذلك تسعى الرواية المضادة إلى كشف أسس السلطة والهيمنة التي تحكم نظام علامات المركزية الغربية (الجاف و هاتو الشرع، ٢٠١٩: ٢٤٧).

أصبحت الرواية – ضمن هذا المنظور – أداة فعالة عند الشعوب المستعمَرة للحفاظ على هويتها ووجودها وتاريخها الخاص. ويؤكد إدوارد سعيد أنّ المعركة الرئيسة في العملية الامبريالية كانت من أجل الأرض؛ لكن حين آل الأمر إلى مسألة مَن كان يملك الأرض، ويملك حقّ استيطانها والعمل عليها، ومَن ضمِن استمرارها وبقاءها، ومَن استعادها، ومَن يرسم الآن مستقبلها، فإنّ هذه القضايا انعكست، ودار حولها الجدال، بل حُسمت أيضاً لزمن ما، في السرد الروائي. لقد أسهمت الرواية في توطيد أركان الامبريالية، وهي أيضاً لم تردع ولم تكبت المشاعر الامبريالية الأشدّ عدوانية وشعبية التي تجلّت بعد عام ١٨٨٠. فالروايات الانجليزية في القرن التاسع عشر تؤكد على الوجود المستمر (نقيضاً للانقلاب الثوري) لإنكلترا. وعلاوة على ذلك، فإنّها لا تدعو أبداً إلى التخلّي عن المستعمرات، بل يتبنى وجهة نظر بعيدة المدى متمثلة في الحفاظ على المستعمرات ما دامت تقع ضمن مدار السيطرة البريطانية، وعُدّت هذه السيطرة نوعاً من المعيار، وهكذا فهي تصان جنباً إلى جنب المستعمرات. ويجب أن نستمر في تذكّر أنّ الروايات تشارك وتسهم، وهي جزء من سياسات بالغة البطء لا نهائية الصغر، توضح، وتعزز، بل ربما كانت من آنٍ لآخر تدفع قدماً، التصورات ووجهات النظر حول انكلترة والعالم. إنّه لمن اللافت الصادم أنّ ذلك العالم القصي، في الرواية، لا يُرى مرة واحدة إلاّ منضوياً خاضعاً، وأنّ الحضور الانجليزي يعتبر تقنينياً ومعيارياً. ويصدق ذلك على الرواية الانجليزية لأنّ انكلترا هي الوحيدة التي كانت لها امبراطورية ما وراء البحار صانت نفسها على مثل تلك المساحة، وعلى مثل

هذا المدى الزمني الطويل. إنّ الرواية الأوروبية في القرن التاسع عشر هي بشكل رئيس شكل ثقافي معزز لسلطة الواقع الراهن، ولكنه أيضاً منقٍ له، ومفصح عنه.

إنّ الأمم، كما اقترح أحد النقاد، هي ذاتها سرديات ومرويات. وإنّ القوة على ممارسة السرد، أو على منع سرديات أخرى من أن تتكون وتبزغ، لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة وللامبريالية، وهي تشكل إحدى الروابط الرئيسية بينهما. ولأنّ السرد يلعب دوراً كبيراً في المسعى الامبريالي، فليس من المفاجئ في شيء أنّ فرنسا وخصوصاً انكلترة تمتلكان تراثاً غير منقطع من الكتابة الروائية لا نظير له في أي مكان آخر. لقد بدأت أميركا تصبح إمبراطورية أثناء القرن التاسع عشر، لكنها لم تحذ حذو سلفيها العظيمتين مباشرة إلاّ في النصف الثاني من القرن العشرين، بعد تفكك استعمار الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية. وفي المقابل أنّ الأمر الأهم هو أنّ السرديات الجليلة الكبرى للتحرر والتنوير قد جنّدت هي بدورها الشعوب في العالم المستعَمر وحفّزتها على الانتفاض وخلع نير الإمبريالية؛ وخلال هذه العملية، هزّت تلك القصص وأبطالها العديدَ من الأوروبيين والأمريكيين، فقام كتاب الشعوب المستعمَرة بدورهم في الصراع من أجل سرديات جديدة للمساواة والروح المجتمعية الإنسانية (سعيد، ۲۰۰٤: ٥٨).

من هذا المنطلق، ناضل إدوارد سعيد وحارب ضد الهويات المتصلبة، الانفصالية التي تصنف نفسها نقيضاً للآخر، وتقيم الحواجز بينها وبين العالم، سواء أكانت هذه الهويات تتحدد في سياسات الهوية عند المرأة، أو الذكر، أو الغربي، أو العربي، أو الإسلامي، أو المسيحي أو اليهودي. وبدأ يبحث عن الطاقات التي تحرر النفس والثقافة من هذا المبدأ السكوني الذي يشكل أساس الفكر الثقافي في العهد الإمبريالي (سعيد، ۲۰۰٤: ۲۲).

۷. القراءة الطباقية ونوعية القارئ

القراءة الطباقية مصطلح صاغه إدوارد سعيد ويقصد به تجاوز التحليل الجزئي الذي تقوم به المدارس القومية المختلفة، أو المدارس النظرية بانتظام مطرد، بدل ذلك يقترح إدوارد سعيد الخطوط الطباقية لتحليل كوني، تعاين فيه النصوص والمؤسسات الدنيوية بوصفها عاملة معاً، لاستخلاص ما هو صامت أو موجود هامشياً أو مقموع عقائدياً، ففي منظور القراءة الطباقية يُقرأ ديكنز وثاكري – المؤلفان

اللندنيان – أيضاً ككاتبين تفعم تجربتهما التاريخية بالمشروع الاستعماري في الهند وأستراليا، وكانا على وعي تام به... فيمكننا أن نقرأ في هذا الإطار الروايات الانجليزية قراءة غير أحادية، بل طباقياً.

تعني القراءة الطباقية عند إدوارد سعيد توسيع قراءاتنا للنصوص، وإدخال العملية الامبريالية، وعملية المقاومة لها، في حسابها؛ وتتضمن عملية التوسعة إدراج ما تمّ ذات يوم إقصاؤه بالقوة ضمن عملية القراءة، كما نجد ذلك في رواية الغريب لكامو التي تمثل التاريخ السابق لاستعمار فرنسا بأسره وتدميرها للدولة الجزائرية، ثم الظهور اللاحق لجزائر مستقلة اتخذ منها كامو موقف المعارض. ويعتقد إدوارد أنّ في وعينا النقدي شرخاً خطيراً، شرخاً يسمح لنا بقضاء قدر كبير جداً من الوقت في إرهاف نظريات كارلايل وَرَسْكِن الجمالاتية وإحكام حبكها، مثلاً، دون أن نولي أيّ اهتمام للسلطة التي أضفتها هذه النظريات بصورة متآينة على إخضاع شعوب أدنى وأراض مستعمرة.

إنّ القراءة الطباقية قراءة غير إلغائية، ولكنها في الوقت نفسه، قراءة تحتفي بالاختلاف، إذ من الجلي أنّه لا ينبغي لأي قراءة أن تسعى إلى أن تعمّم إلى درجة إلغاء هوية نص ما، أو كاتب ما، أو حركة ما. لكن بالمعيار نفسه، ينبغي أن تدخل القراءة في الاعتبار أنّ ما كان مؤكداً، أو بدا أنّه مؤكّد بالنسبة لعمل أو مؤلف ما، قد يكون أصبح عرضة للخلاف. إنّ هند كبلنغ في كيم، لها خصيصة من الديمومة والحتمية تنتمي لا إلى تلك الرواية المدهشة وحسب بل إلى الهند البريطانية أيضاً: إلى تاريخها، وإدارييها، والمنافحين عنها، وإلى ما لا يقل أهمية وهو الهند التي حارب من أجلها القوميون الهنود لأنّها وطنهم الذي بنبغي أن يستعاد. وبتقديم مسرود لهذه السلسة من الضغوط والضغوط المضادة في هند كبلنغ، نفهم العملية الامبريالية نفسها كما يتعالق معها أي مع السلسلة العمل الفني العظيم، كما نفهم عملية المقاومة اللاحقة للامبريالية. في قراءة نص ما ينبغي على المرء أن يفتحه، ويكشف ما اندرج فيه ويشخص ما أقصاه مؤلفه عنه أيضاً. إنّ كلّ عمل ثقافي هو رؤيا للحظة ما، وعلينا أن نقحم هذه الرؤيا تجاورياً مع الرؤى التنقيحية المتنوعة التي استثارتها فيما بعد – في هذه الحالة، مع التجارب القومية لهند ما بعد الاستقلال.

فضلاً عن ذلك، فإنّ على المرء أن يربط القصة المسرودة بالأفكار، والتصورات، والتجارب التي منها تستمد الدعم. إنّ أفارقة كونراد، مثلاً، يطلعون من مكتبة ضخمة لـ الأفريقانية، إذا جاز التعبير، كما من تجارب كونراد الشخصية. ليس ثمة شيء اسمه التجربة المباشرة، أو الانعكاس، للعالم في لغة

نص. لقد تأثرت انطباعات كونراد عن أفريقيا وبشكل حتمي بمخزون المأثورات الشعبية وبالكتابات عن أفريقيا، التي يلمع إليها في كتابه سجل شخصي؛ وما يقدمه في قلب الظلام هو حصيلة انطباعاته عن تلك النصوص متفاعلة تفاعلاً خلاقاً، إلى جانب مقتضيات السرد وأعرافه، وعبقريته وتاريخه الخاصين المتميزين. وأن يقال عن هذا المزيج الخارق الثراء إنه يعكس أفريقيا، أو إنّه يعكس تجربة لأفريقيا، هو قول جبان نوعاً ما، ومضلل بالتأكيد. فما لدينا في قلب الظلام – وهو عمل ذو تأثير ضخم، إذ إنّه قد استفز العديد من القراءات والصور – هو أفريقيا مسيّسة، ومشبعة عقائدياً، لا مجرد انعكاس تصويري أدبي لأفريقيا. إنّ نصاً على هذه الدرجة من الهجنة، والعكرة، والتعقيد ليتطلب انتباهاً يقظاً في عملية تأويله. لقد كانت الامبريالية الحديثة من الكونية والشمولية بحيث لم ينج فعلياً من تأثيرها شيء؛ وإلى جانب ذلك، فإنّ تنافس القرن التاسع عشر حول الامبراطورية، ما يزال مستمراً اليوم. ولذلك فإنّ النظر أو عدم النظر إلى الروابط بين النصوص الثقافية والامبريالية يعنيان اتخاذ موقف هو في حقيقة الأمر متخذ: إمّا أن ندرس الصلة من أجل نقدها والتفكير ببدائل لها... وإمّا ألاّ ندرسها من أجل أن نتركها ماثلة، غير ممحّصة، ودونما تغيير على سبيل الافتراض. إنّ هذا النوع المحدد من الاهتمام، يتيح للقارئ أن يؤول الأعمال المكتونة للقرنين التاسع عشر والعشرين باهتمام مشبوك منخرط من جديد.

تعتمد القراءة الطباقية عند إدوارد سعيد على التمييز بين ثلاثة أنواع من القراء؛ قراء منتمون إلى المركزية الغربية، وقراء منتمون إلى السكان الأصليين، وثالثاً جمهور مفترض في مخيّلة الكاتب عند كتابة منتجه الثقافي. فحسب هذا التمييز قد تم تدوين مركزية الرؤيا الامبريالية وتدعيمها من قبل الثقافة التي أنتجتها، ثم قنعتها وتحوّلت أيضاً بتأثيرها. فمن الطبيعي أنّك إذا حدث أن كنت أنت نفسك ذا خلفية استعمارية، فستكون الموضوعة الامبريالية موضوعة محتّمة مقررة في تكوينك، كما أنها يستميلك إليها إذا حدث أيضاً إنْ كنت ناقداً متفانياً للأدب الأوروبي. إنّ الباحث الهندي أو الإفريقي (المتخصص) بالأدب الانجليزي يقرأ كيم أو قلب الظلام بملحاحية نقدية لا يشعر بها بالطريقة نفسها تماماً باحث أميركي أو بريطاني.

أن نعتبر الانشغالات الامبريالية مهمة تأسيسياً فيما يتعلق بثقافة الغرب الحديث يعني، أن نعاين تلك الثقافة من منظور توفّره المقاومة المناوئة للامبريالية كما توفره المنافحات الموالية للامبريالية. فماذا

يعني ذلك؟ إنّه يعني تذكّر أنّ الكتاب الغربيين إلى منتصف القرن العشرين – ويستوي في ذلك ديكنز وأوستن وفلوبير وكامو – كتبوا وفي أذهانهم جمهورٌ غربي حصرياً، حتى حين كانوا يكتبون عن شخصيات، وأمكنة، ومواقف تستخدم، وتشير إلى أراض يملكها أوروبيون فيما وراء البحار. لكن لمجرد أنّ أوستين أشارت إلى أنتيغوا في روضة مانسفيلد أو إلى أقاليم زارتها البحرية البريطانية في رواية إقناع دون أن تخطر ببالها أيّة أفكار عن الاستجابات المحتملة للأصلانيين الكاريبيين أو الهنود الذين يقطنونها، ليس سبباً يدعونا نحن إلى أن نفعل الشيء عينه. فنحن الآن نعرف أنّ هذه الشعوب غير الأوروبية لم تتقبّل بلا مبالاة السلطة المفروضة عليها، أو الصمت العام الذي يسند إليه حضورها في أشكال مخففة بطريق شتّى. ولذلك ينبغي علينا أن نقرأ النصوص المكتوبة العظيمة، بل ربما أيضاً سجل المحفوظات الكامل للثقافة الحديثة وما قبل الحديثة في أوروبا وأميركا، باذلين الجهد لاستخلاص ما هو صامت أو موجود هامشياً أو مقموع عقائدياً، في مثل تلك هذه الأعمال، وتوسيعه، وتأكيده، والإفصاح عنه (سعيد، ٢٠٠٤: ٨٣-٨٦ و ١١٨ و ١٣٤-١٣٧ و ١٥١-١٥٢ و ١٩٦-١٩٨ و ٢٣٥-٢٣٦ و ٣٧٤)

٨. النتيجة

وسّع إدوارد سعيد مدارك النقد الأدبي الحديث عندما جعل من الخطاب الكولونيالي ساحة لتبصراته النقدية، ورآى فيه مساحة اختبأت فيها خطابات التسلط والهيمنة الاستعمارية المعنوية والمادية. وقد أراد بذلك تخطي الرؤية النقدية الجمالية المقتصرة على العالم الداخلي للنصوص، والانطلاق في العملية النقدية إلى آفاق إنسانية رحبة.

يرى إدوارد سعيد أنّ الدور الذي لعبه الأدب عامة والرواية خاصة في المشروع الاستعماري الغربي كان دوراً خطيراً، إذ تغلغل الخطاب الأدبي الاستعماري إلى العقل الجمعي للمجتمعات الأوروبية التي اقتنعت بمشاريع التوسع والهيمنة، ورضيت بها، فأصبحت الرواية بذلك أداة طيعة للقوى الامبريالية.

إنّ نظرية ما بعد الكولونيالية ثورة فكرية ضد كل أنواع القهر الإنساني، وليس القهر الإمبريالي السياسي فحسب، مثل قهر المرأة، والإنسان غير الأبيض، والفقير، والضعيف.

لا يتوقف هذا المشروع التنويري الثقافي الممنهج عند إدوارد سعيد عند هذا الحد، فهو مشروع صالح لمحاربة الهيمنة والاستبداد والإقصاء والتهميش في أيّ ظرف، وفي أي مكان.

الهوامش

١. إدوارد سعيد كاتب فلسطيني ثم أمريكي الجنسية، ولد عام ١٩٣٥ في فلسطين وتوفي عام ٢٠٠٣ في الولايات المتحدة الأمريكية. له مجموعة من الكتب المهمة، ترجم الكثير منها إلى اللغة العربية، منها: (البدايات، والاستشراق، والعالم والنص والعالم، والثقافة والامبريالية، وخارج المكان). وفضلاً عن ذلك له نشاطات في المجال الموسيقي ونظرياتها.

المصادر

أبو شهاب، رامي (٢٠١٤)، الرسيس والمخاتلة، خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، النظرية والتطبيق، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢.

أشكروفت، بيل (٢٠٠٥)، الإمبراطورية ترد بالكتابة - آداب ما بعد الاستعمار - النظرية والتطبيق، ت: خيري دومة، عمان: دار أزمنة للنشر والتوزيع.

بعلي، حفناوي (٢٠٠٧)، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، المنطلقات، المرجعيات، الممنهجيات، منشورات الاختلاف، الجزائر: الدار العربية للعلوم.

بوعزيز، وحيد بن (د.ت)، الاستعارة العظمى، إمبراطورية الهيمنة بالتخييل، مجلة هوامش (المصرية).

ثابت، طارق (٢٠١٤)، هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي، مجلة الآثر، العدد ٢ ديسمبر. المتاحة عبر الشبكة العالمية العنكبوتية.

الجاف، كريم حسين، هاتو الشرع، ماجدة (٢٠١٩)، السرد البديل: نقد ميتافيزيقيا المركز، قراءة في الثقافة المضادة للكولونيالية، ضمن وقائع مؤتمر (السرد وما بعد الكولونيالية) مؤتمر الدولي الثالث، ١٥-١٦ نيسان. العراق: جامعة المستنصرية.

راغب، نبيل (٢٠٠٣)، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان.

سعيد، إدوارد (٢٠٠٤)، الثقافة والامبريالية، ت: كمال أبو ديب، بيروت: دار الآداب، ط ٤.

علوش، سعيد، أسليم، محمد (٢٠١٥)، المعجم الموحد لمصطلحات الآداب المعاصرة (إنجليزي - فرنسي - عربي)، سلسلة المعاجم الموحدة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب - الرباط، مطبعة الأمنية، الرباط.

الغذامي، عبد الله (٢٠٠٠)، النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركزالثقافي العربي، المملكة المغربية، بيروت: الدار البيضاء.

لومبا، آنيا (٢٠١٣)، الكولونيلية و ما بعدها، ترجمة باسل المسالمة، دمشق: دار التكوين.

هاتو هاشم، ماجدة (٢٠١٣)، الرواية العربية ما بعد الحداثية، تقويض المركز، الجسد، تحطيم السرديات الكبرى، بغداد: دار الشؤون الثقافية.

References

Abu Shahab, R. (2014). *Postcolonial Discourse in Contemporary Arab Criticism, Theory and Practice* (2nd ed.). Beirut: Arab Institute for Research & Publishing. [In Arabic].

Alvash, S., & Aslim, M. (2015). *Dictionary of Contemporary Literary Terms (English, French, Arabic)*. Rabat: Al-Omnia Press. [In Arabic].

Ashcroft, B. (2005). *The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literature*. (K. Duma, Trans.) Oman: Azamna Publishing House. [In Arabic].

Bali, H. (2007). *An Introduction to the Theory of Comparative Cultural Criticism*. Algeria: Arabic Scientific Publishers. [In Arabic].

Bu Aziz, V. (n.d.). The Great Metaphor, Empire of Domination by Imagination. *Hwamsh Magazine*. [In Arabic].

Al-Ghathami, A. (2000). *Cultural Criticism - a Reading in the Arab Cultural Systems*. Beirut: Dar al-Bayda. [In Arabic].

Hatu Hashem, M. (2013). Postmodern Arab Novel, Undermining the Center, the Body, Shattering Grand Narratives. Baghdad: The House of Cultural Affairs. [In Arabic].

Al-Jaf, K. H., & Hatu Shara, M. (2019) Alternative Narrative: Focused Metaphysics Criticism, A Reading in the Anti-Colonial Culture. *Narrative and Postcolonialism Conference III*. Iraq: Al-Mustansiriyah University. [In Arabic].

Loomba, A. (2013). *Colonialism/Postcolonialism*. (B. Al-Musalima, Trans.) Damascus: Dar al-Takvin). [In Arabic].

Ragheb, N. (2003). Encyclopedia of Literary Theories. Giza: Egyptian International Publishing Company, Longman. [In Arabic].

Sabet, T. (2014). The Identity of Literature between Presence and Absence in Postcolonial Arab Critical Discourse. *Al-Athar*, No. 2. [In Arabic].

Said, E. (2004). *Culture and Imperialism* (4th ed.). (K. Abu Adib, Trans.) Beirut: Dar al-Adab. [In Arabic].